

تفسير البحر المحيط

@ 166 @ الناس ، كقول نمرود : { أَلَمَ تَرَ إِلَى } ، احتيج إلى تأكيد في أن ذلك إنما هو لا غيره ، فهو الذي يضحك ويبكي ، وهو المميت المحيي ، والمغني ، والمقني حقيقة ، وإن ادعى ذلك أحد فلا حقيقة له . وأما { وَأَنزَّهُهُ وَرَبُّ الشَّعْرَى } ، فلأنها لما عبت من دون الله تعالى ، نص على أنه تعالى هو ربها وموجدها . ولما كان خلق الزوجين ، والإنشاء الآخر ، وإهلاك عاد ومن ذكر ، لا يمكن أن يدعي ذلك أحد ، لم يحتج إلى تأكيد ولا تنصيص أنه تعالى هو فاعل ذلك . وعاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى إرم . وقيل : الأولى : القدماء لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام . وقيل : الأولى : المتقدمون في الدنيا الأشراف ، قاله الزمخشري . وقال ابن زيد والجمهور : لأنها في وجه الدهر وقديمه ، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة . وقال الطبري : وصفت بالأولى ، لأن عاداً الآخرة قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهو بنو لقيم بن هزال . وقال المبرد : عاد الأخيرة هي ثمود ، والدليل عليه قول زهير :
كأحمر عاد ثم ترضع ففطم .

ذكره الزهراوي . وقيل : عاد الأخيرة : الجبارون . وقيل : قبل الأولى ، لأنهم كانوا من قبل ثمود . وقيل : ثمود من قبل عاد . وقيل : عاد الأولى : هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ؛ وعاد الثانية : من ولد عاد الأولى . وقرأ الجمهور : { عَادًا الْوَلَى } ، بتنوين عاداً وكسره لالتقائه ساكناً مع سكون لام الأولى وتحقيق الهمزة بعد اللام . وقرأ قوم كذلك ، غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام وحذفوا الهمزة . وقرأ نافع وأبو عمرو : بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة ، وعاد هذه القراءة للمازني والمبرد . وقالت العرب في الابتداء بعد النقل : الحمر ولحمر ، فهذه القراءة جاءت على الحمر ، فلا عيب فيها ، وهمز قالون عين الأولى بدل الواو الساكنة . ولما لم يكن بين الضمة والواو حائل ، تخيل أن الضمة على الواو فهمزها ، كما قال :
أحب المؤقدين إليّ موسى .

وكما قرأ بعضهم : على سؤقه ، وهو توجيه شذوذ ، وفي حرف أبي عاد غير مصروف جعله اسم قبيلة ، فمنعه الصرف للتأنيث والعملية ، والدليل على التأنيث وصفه بالأولى . وقرأ الجمهور : وثمودا مصروفاً ، وقرأه غير مصروف : الحسن وعاصم وعصمة . { فَمَا أَبَقَى } : الظاهر أن متعلق أبقى يرجع إلى عاد وثمود معاً ، أي فما أبقى عليهم ، أي أخذهم بذنوبهم . وقيل : { فَمَا أَبَقَى } : أي فما أبقى منهم عيناً تطرف . وقال ذلك الحجاج

بن يوسف حين قيل له إن ثقيفاً من نسل ثمود ، فقال : قال الله تعالى : { وَثَمُودَ إِذْ كَفَرُوا فَنَادَيْنَاهُم أَنْ آتِنَاهُمْ مَاءً يَاقُونَ ، وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَتَنَصَّرُونَ ، فَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِهِمْ إِلَى نُورٍ مِّنْ نُّورٍ مَّجِيدٍ ، فَذَكَرْنَا لَهُمْ آيَاتِنَا فَكَفَرُوا بِهَا فَذَمَّمْنَاهُمْ ذَمًّا مُّبِينًا ، فَجَاءنَا نُوحٌ وَجَاءنَا مَلِكُنَا بِالْأَمْرِ الْكُرْبِيِّ ، فَصَوَّرْنَاهُم بَشَرًا لِّمَنْ أَلْفَلَاكٌ يَّجْرُونَ ، لَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَارَهُمْ بَلْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْزَلَ لَهُ الْقُرْآنَ وَالْهُدَى ، وَتَذَكَّرْتَهُمْ كَيْدَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } ، وهؤلاء يقولون : بقيت منهم بقية ، والظاهر القول الأول ، لأن ثمود كان قد آمن منهم جماعة بصالح عليه السلام ، فما أهلكهم الله مع الذين كفروا به . . .

{ وَقَوْسُ مَوْجٍ مِّنْ قَبْلُ } : أي من قبل عاد و ثمود ، وكانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ، ونوح عليه السلام أول الرسل . والظاهر أن الضمير في { أَنْزَلْنَاهُمْ } عائد على قوم نوح ، وجعلهم { أَطْلَامَ وَأَطْغَى } لأنهم كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام ، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون لشيء مما يدعوهم إليه . وقال قتادة : دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه ، يحذره منه ويقول : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا ولنا مثلك يومئذ ، فأياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل : الضمير في إنهم عائد على من تقدم عاد و ثمود وقوم نوح ، أي كانوا أكفر من قريش وأطغى ، ففي ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم) . وهم يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ، ويجوز أن يكون فصلاً ، لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول بعد الواقع خيراً لكان ، لأنه جار مجرى خبر المبتدأ ، وحذفه فصيح فيه